ملخص موجز في العقيدة الإسلامية

للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

مشاركة موقع نسيم الشام

المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾. فالله سبحانه وتعالى يقول: لا تتّبع مبدأً فكرياً اعتقادياً دون أن تجد دلائل العلم عليه أبداً، ولا تقف ما ليس لك به علم أبداً، حتى الدين يا ربي؟ حتى الدين؛ لأن (ما) أداة عموم، ﴿وَلاَ تَقْفُ﴾ لا تتّبع، ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أيُّ شيءٍ دُعيتَ إلى الاعتقادِ به ولم تجد دلائل العلم عليه، ولم تجد بصمات العلم تؤيده لا تتبعه أي شيء...، إذ دخل الإسلام فيه أيضاً، ولذلك قال العلماء: (لو أنَّ إنساناً آمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقلنا له: ما هو الدليل العلمي الذي اعتمدت عليه حتى اقتنعت هذه المعتقدات؟ قال: لا أعلم، على كلٍّ أنا نشأت في أسرة مسلمة ، أبي وأمي مسلمان فسرت على نهجهما، التيار عندنا هكذا وأنا مع التيار، هل يكون هذا يوم القيامة مسلماً عند الله؟ أبداً، أبداً).

إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد

يقال له: أنا أعطيتُك عقل، وكان عليك وقد دُعيتَ إلى الإيمان بالله –ولو النبي دعاك– أن تفكر وأن تربط بين هذا الكلام و الدلائل العلمية، فإذا وجدت الدلائل العلمية تقول نعم؛ عندئذٍ تعتنق هذا المبدأ ودليلك العلم.. نعم. لكنك أعرضت عن العلم، وجعلت سبب اعتناقك لهذا الدين التيار الموجود في بلدك، الأسرة التي تنتمي إليها، وهذا غير مقبول، الباري عز وجل يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. ما معنى هذا الكلام؟ أي ما ينبغي أن تجعل دليلك على الحق الذي تريد أن تتبعه الظن، الظنُّ يولِّد الظّن، الظّنُّ لا يوصلك إلى اليقين، يجب أن تعتمد على دليل قطعي، على دليل يورثك اليقين، تصل به إلى اليقين...

***

ـ كيفية التعامل مع الكون والإنسان والحياة:

ـ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، إذاً: نحن لم نخلق عبثاً، وانظروا إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، وانظروا إلى قوله عزّ وجلّ وهو يلفت نظرنا إلى هذه التعليمات: ﴿...قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ /المائدة-15/، نصغي فنسمع هذا الكلام، إذاً نصغي أكثر، ما يقول لنا هذا النور؟ هذا النور أنبأنا عن قصة الرحلة الإنسانية، من أين انطلقت؟ وإلى أي نهاية تسير؟ هذا الوحي أنبأنا بعد ذلك عن كيفية التعامل مع الكون والإنسان والحياة، أي وضعنا أمام قائمة أحكام (هكذا افعلوا، هذه الطرق ابتعدوا عنها، هذه الأوامر طبقوها...)، وهذا الذي يجعلنا نواصل الرحلة في حين أنه تخلف عنها كثير من الناس، اقتنعوا بالإيمان بالله ولم يواصلوا، أما نحن وقد عرفنا الكلام الذي قلته، لابد أن نصغي إلى التعليمات التي وفدت إلينا من عند الله عز وجل، هذه التعليمات كيف وصلت؟ وصلتنا وحياً بواسطة من يسمَّون بالرسل والأنبياء، وهؤلاء الرسل والأنبياء أعدادهم كثيرة.

***

ـ العلم سبيل الوصول إلى الإيمان:

ـ ونحن لا مصلحة لنا أن ننحاز إلى طرف ضد طرف، وإنما نستمسك بحبل العلم ولا شيء غير العلم، عندما يدعونا العلم إلى الإيمان لابد أن نؤمن؛ لأننا لا نصادق أحداً غير العلم، فإذا قلنا: العالم قديم لا أول له، فإن هذا العالم مجموعة علل، كل علة منها كالصفر، لا يمكن أن يُوجِد شيئاً ولا يمكن أن يُوجَد، إذاً: لابد وأنا أرى هذه المكوّنات أمامي، ولابد مما يسميه المهندسون من كتلة ذاتية، أي من كائن وجوده نابع من ذاته، وليس فيضاً من غيره، منه انبثق هذا الوجود.

وما دمتُ أرى هذه المكوَّنات أمامي، ولا أستطيع أن أرفضها أو أن أتصور أنها معدومة ؛ إذاً لابد أن هذه الموجودات تعتمد على شيءٍ وجوده نابع من ذاته، وليس فيضاً من غيره، وإلا لمضت السلسلة إلى ما لا نهاية.

ــ القضاء و القدر (معناهما ووجوب الإيمان بهما):

هنا قد يقول قائل: ولماذا خلق الله الإنسان؟ ولماذا أقامه فوق هذه الكرة الأرضية؟

هذا سؤال على الهامش، ولا أريد أن أقف عنده طويلاً، ولكن لابد من إجابة مختصرة عن هذا السؤال:

أولاً: هذا السؤال إذا تأملنا جيداً نجده غير وارد من مخلوق لخالق، ومن عبدٍ لإله، ولكنَّ الإنسان من كثرة ما اعتاد أن يسأل أمثاله من البشر لماذا فعلت كذا؟ ولماذا صنعت كذا ؟ لماذا تحفر الأرض؟ لماذا تزرع؟ لماذا تبني؟ لأن كل إنسان عندما يفعل شيئاً يهدف من فعله إلى غاية، لأن الإنسان ضعيف لا يستطيع أن يحقق غاياته رأساً وإنما بوسائل، وبناءً على ما تعوده الإنسان يطرح هذا السؤال أيضاً في حق الله عز وجل، فيقول: لماذا خلق السموات؟ لماذا خلق الإنسان؟

بكل بساطة، وبكل وضوح نقول: هذا السؤال لا يرد من المخلوق للخالق، الله عز وجل لا يندفع إلى أعماله بدوافع كالتي تدفعنا نحن، أي لا يندفع إلى أعماله بقصودٍ يريد أن يبلغها عن طريق وسائط، فإن الله لا يعجزه شيء أن يحقق ما يريد بدون أي وسيلة، وجوابنا من ثَمَّ على هذا السؤال قول الله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾. لقد شاءت حكمة الله أن يخلق الإنسان فوق هذه الكرة الأرضية، وأن يعرِّفه على ذاته، وأن يعرِّفه قصة الكون الذي من حوله، وأن يجعله خليفةً فوق هذه الأرض، يقوم عن الله عز وجل في رقابة ميزان العدل بين الناس، لكن بسلوكه الاختياري، لا بالغريزة كالحيوانات المختلفة، هكذا شاء الله عز وجل ولا رادّ لمشيئته ولا معقب لقضائه.

نتجاوز إذاً هذا الموضوع..، ونقف من ثَمَّ أمام المسألة التي يتطارحها كثيرٌ من الناس وهنا تأتي مناسبتها:

عندما قلنا أن القرآن في شطره الثاني عبارة عن تعليمات وأوامر ونواهي، ومن ثَمَّ يحذرنا القرآن أننا إذا لم ننفذ هذه الأوامر، وإذا ارتكبنا هذه النواهي، فقد يسبب ذلك لنا شقاءً ووبيلاً، وإذا انصعنا إلى أوامر الله عز وجل فلاشك أن هذا الانصياع يكون سبباً لسعادة الإنسان في دنياه وآخرته.

_ هنا قد يقول أحدنا: والقضاء والقدر ماذا نصنع به؟ وماذا يملك أن يفعل الإنسان في نطاق التعليمات التي وجهت إليه، والنواهي التي حُذر منها، مادام محكوم بسلطان القضاء والقدر؟

هنا نفتح ملف مسألة القضاء والقدر، ونطيل الكلام في شأنهما لكي نعلم أن هذه المسألة ليست مشكلةً -وأنا لا أقول مشكلة القضاء والقدر كما تلاحظون، وإنما أقول مسألة-، إلا أن محترفي الغزو الفكري أرادوا أن يجعلوا منها مشكلة، وتاجروا بها من أجل أن يصلوا إلى ما يبتغون، وطالما عكروا الرؤية بين كثير من العقول والإسلام بواسطة موضوع القضاء والقدر، ولكنهم ما استطاعوا أن ينجحوا وأن يخدعوا إلا البسطاء السذج من المسلمين، أما أولئك الذين حصنوا أنفسهم في حصن الثقافة الإسلامية الراشدة فما أبعد أن يستطيع شياطين الإنس أو الجن تلاعباً بعقولهم...

_ ما معنى القضاء؟

القضاء علم الله عز وجل بكل ما يجري مع الإنسان، وبكل ما يتصرفه سواءٌ من أموره التي هو مخير فيها، أو أموره التي هو مسير فيها، علم الله عز وجل بما سأفعله وبما يجري عليَّ من أحداث ماضية وآتية، هذا العلم المسجل في كتاب، الذي لا يطّلع عليه إلا الله هو الذي يسمى (القضاء)...

_ وأما القدر:

فهو وقوع معلومات الله عز وجل تماماً على النحو الذي علمه، فإذا علم الله عز وجل أنني سأموت في تاريخ كذا ويوم كذا وفي ساعة كذا فهذا هو القضاء، فإذا مت فعلاً في ذلك التاريخ فذلك هو القدر، وهذا من الأمور التي لا اختيار لي فيها.

مثال آخر من الأمور التي أنا مخير فيها: علم الله عز وجل أني سألقي هذه المحاضرات في هذه الأيام بعدد معين، وبشكل معين، علم ذلك وسجله في غيبه، هذا هو القضاء، ثم إذا وقعت هذه المحاضرات فعلاً وأنجزتها كما علم الله عز وجل فهذا هو القدر...

ـ **أعود فأقول إذاً:** القضاء علم الله عز وجل بكل ما يقع في الكون، وبكل ما يجري على الإنسان من الأحداث التي لا اختيار له فيها، أو من الأحداث التي هو مخير فيها..

ـ والآن: إذا علمنا أن هذا هو القضاء، فهل هنالك أي علاقة بين القضاء وبين الجبر؟ وهل يحق للإنسان أن يقول قضى الله عليّ أن أفعل كذا، إذاً أنا لست صاحب رأي، ولست قادراً على أن أختار لنفسي شيئاً..؟

لا.. لا يمكن للإنسان أن يعتذر بالقضاء –وقد عرفنا معناه– لا يمكن للإنسان أن يعتذر بالقضاء فيقول شيئاً من هذا القبيل.

ـ ولنَزِدِ الكلام إيضاحاً: القضاء علم الله، يقول العلماء: (العلم صفة كاشفة، وليست صفة مؤثرة)، أي أن العلم أشبه بالمصباح الكهربائي في مقدمة السيارة، فأنت عندما تضيء مصباحك الكهربائي في مقدمة السيارة، هذا المصباح يريك الطريق على ما هو عليه، يريك الطريق المستقيم مستقيماً، والمعوجَّ معوجاً، والمعبد معبداً، والطريق المملوء بالحفر والتضاريس كما هو، المصباح أو الضوء يريك الشيء على واقعه، العلم صفة كهذه الصفة، صفة كاشفة وليست صفةً مؤثرة أو ملزمة. الله عز وجل خلق الإنسان، وأورثه العقل، ومتعه بالاختيار، وأَقدره على اتخاذ القرار. ثم إن الله بوصف كونه إلهاً، لابد أن يعلم ماذا سأختار بمحض إرادتي، وماذا سأصنع، ومتى أرتكب محرماً، ومتى أطيع الله سبحانه وتعالى، الله عز وجل يعلم هذا مني بطبيعة الحال، فإذا علم الله سبحانه وتعالى أنني باختياري وبإرادتي سأفعل كيت وكيت وكيت، فمتى يحق لي أن أقول إذاً أنا أصبحت مضطراً؟ إذا علم الله ماذا سأختار أصبحت بذلك مضطراً..! هذا وهم، أو هو تناقض، أو سوء معرفة من الإنسان عندما يتصور الأمر على هذا النحو.

وتعالوا نأتي بمثال يتعلق بحياة الناس بعضهم مع بعض، لنوضح هذا المعنى الذي أقول: مدرس في جامعة أو مدرسة، له تلميذ، وبوصف كون الأستاذ عبقرياً خبيراً ذكياً، تأمل في تلميذه وتوقع منه

الرسوب، توقع منه الإهمال والكسل، وسجل هذا الأستاذ في مذكرته أن هذا التلميذ عندي كسول، ولسوف يرسب ولن ينجح، وفعلاً هذا التلميذ رسب أخيراً؛ لأنه فعلاً كما تنبأ أستاذه وكما تفرس فيه، كان كسولاً، هل لهذا التلميذ أن يقول لأستاذه: مادمت أنك قد عرفت أنني كسول، وأنني لن أنجح، فأنت إذاً الذي سببت لي الكسل والرسوب، وما ينبغي أن تحاسبني على شيء لست مختاراً فيه، هل لهذا التلميذ أن يقول هذا الكلام؟ أبداً، لو أن هذا التلميذ قال هذا الكلام لأستاذه لعاقبه أستاذه عقاباً آخر، يقل له: أنا بمحض معرفتي وخبرتي وفراستي عرفت أنك ستختار الكسل، ولسوف تختار الإهمال، ومن ثَمَّ فلسوف ترسب بسبب تقصيرك، لا بسبب دفعي إياك إلى التقصير.

إذا كان هذا الأمر معروفاً فيما بين الناس بعضهم مع بعض، فهذه المسألة هي ذاتها فيما يتعلق بعلم الله، الله خلقني، وأودعني في هذا الكون، وأعطاني القدرة، وأعطاني الاختيار، وأعطاني القدرة على اتخاذ القرار، ثم نظر إلي فعلم ماذا سأختار، سجل هذا في علمه، هذا هو القضاء. أما القدر فوقوع ذلك مطابقاً لعلم الله سبحانه وتعالى..

طبعاً هنالك أشياء مما يدخل في قضاء الله عز وجل لا اختيار لي فيها، مثل علم الله عز وجل بأنني سأمرض يوم كذا، وأنني سأقع مثلاً وأصاب بشيء، وأنني سأموت يوم كذا، وأنني سأنام في ساعة كذا، وأستيقظ ساعة كذا، هذه أشياء كلها أيضا تدخل في علم الله عز وجل، ولكنها ليست مما يدخل في نطاق اختياراتنا، ومن ثمَّ فإن الله لا يحاسبنا عليها؛ لأنه لا يحاسب الإنسان إلا ضمن دائرة قدراته، والأمور التي هو مخير فيها، هذا معنى القضاء والقدر.

ولكن مع ذلك يبقى هنالك، أو تبقى سلسلة من التساؤلات، فلنأت على هذه التساؤلات كلها واحدة إثر أخرى...

قد يقول قائل: هذا حسن، ولكن الفعل الذي يصدر مني عندما أصلّي، أو عندما يشرب الخمرة من يشربها، هذا الفعل من الذي خلقه، أليس الله خالق كل شيء؟

نقول: بلى... حسناً: إذا كان الله خالق كل شيء، فصلاتي هو الذي خلقها، وشربي الخمر –والعياذ بالله– هو الذي خلقه، وسيري إلى المسجد أو إلى الموبقات هو الذي خلقه، فقد عادت المشكلة، كيف يحاسبنا الله عز وجل على أمور هو خالقها؟

الجواب–ولنتأمل بدقة–:

الله هو خالق كل شيء فعلاً، وأفعالنا هو خالقها؛ لكن ما معنى أن أفعالنا هو خالقها؟ عندما أكتب الآن الذي أقدرني على حمل القلم هو الله، والذي أقدرني على تحريك يدي هو الله، والذي بث الدماء في عروقي فأحيي يدي بهذه القدرة هو الله، ومن ثَمَّ أقول: خلق الكتابة –فعل الكتابة– بخلق الله سبحانه وتعالى، كذلك الذي أقدرني على الوقوف منتصباً عند صلاتي هو الله، والذي يقدرني على التحركات في الصلاة هو الله عز وجل، إذاً الله هو خالق فعلي، ولكن مهما قلنا إن الله هو خالق فعل الإنسان، فإن هذا لا يساوي ولادة الفعل، لا يساوي ظهور الفعل من العدم إلى الوجود، لا بد أن يوجد دافع إلى هذا الفعل الذي يخلقه الله..، ما هو هذا الدافع؟ الرغبة؛ رغبتي في أن أصلي، رغبتي في أن أكتب، قراري الذي أتخذه أنني الآن سأنهض لأذهب إلى المسجد فأصلي، هذا القرار الداخلي وهذا العزم مني أنا، بهبة من الله عز وجل، أودع في كياني سرّاً اسمه سرُّ الانبعاث، الإرادة، العزم، وهذا الشيء أنا أتمتع به، فالله عز وجل عندما يراني –الله مطلع على القلوب، مطلع على السرائر– عندما يراني قد عزمت على أن أقوم فأصلّي، وتكامل العزم في كياني، فإن الله سبحانه وتعالى يقذف في كياني القوة، ويقدرني على النهوض، ويحرك أعصابي، ويجري الدماء في عروقي، لكي يخلق الفعل المناسب للعزم الذي عزمته، والمثوبة يوم القيامة ليست على الفعل المادي الذي هو بخلق الله، ولكنَّ المثوبةَ على العزمِ الذي صدر مني (العزم، الرغبة في الصلاة....)، هذه الرغبة هي مناط المثوبة في الطاعات، وهي مناط العقوبة في السيئات.

***

ـــ الهداية والضلال (أسباب ونتائج):

أما الآيات الأخرى كقوله عز وجل: ﴿وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي من يَشاء﴾ /سورة النحل/، وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء﴾، هذا الكلام وأمثاله

في القرآن كثير، يدل على أن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى، فهو يختار للهداية من يشاء ويزجه فيها، ويختار للضلال من يشاء ويزجه فيها، الجواب: فعلاً نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لهدى الناس جميعاً، نعلم هذا، والله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء..؛ لكن هل سمعت آية في كتاب الله عز وجلَّ يوضح اللهُ فيها أنَّ اللهَ يهدي الناسَ بشكلٍ عشوائيٍّ، ويضلُّهم بشكلٍ عشوائي؟ إن رأيت في القرآن كلاماً من هذا القبيل فتلك هي المشكلة.

إن الله عز وجل بين لنا نقيض ما قد تتصور، صحيح أن الله أعلم أنه يهدي من يشاء هدايته، ويضل من يشاء إضلاله، لكنه فصّل القول في آيات كثيرة في كتابه، فأوضح لنا أن كل إنسان تخلى عن كبريائه، ووضع عقله ميزاناً بين يديه، وقرر أن يتبع الحق الذي يهديه إليه عقله –إن كان إيماناً أو إلحاداً– دون أي مواربة ولا عصبية ولا استكبار؛ فإن الله سيهديه. هكذا قرر الله عز وجل في قرآنه. وقرر أن كل إنسان يضع نصب عينيه عصبيته أهواءه، ويحجب نفسه عن الحق بكبريائه سلفاً، بحيث يأت المناقشون والمحاورون فيصدهم ويردهم دون أن يلتفت إلى عقله، فإن الله قرر في قرآنه أن يضله، وانظروا إلى قول الله عز وجل عن الفئة الأولى: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

وانظروا إلى قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، إذاً الباري آل على نفسه أن يهدي كل من تعرض لأسباب الهداية.

وانظروا إلى قول الله عز وجل في حق الفريق الثاني: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾يطبع على قلبه –أي يجعله لا يعي– هذا فعلاً إضلال، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾، وأكد هذا في آية أخرى إذ قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، هذا هو الميزان، هنالك قانون أوضحه الله عز وجل: قال أنا أهدي من أشاء وأضل من أشاء، ثم إنه عاد فشرح وبين أن الإنسان الذي تخلى عن كبريائه، وقرر أن يسير وراء عقله يهديه الله، بل لابد أن يهديه.

والإنسان الذي قرر أن يسير وراء رعوناته، ووراء بغيه وكبريائه وعصبيته، وأنه لن ينصاع للحق، فإن الله عز وجل يسلمه إلى ما قرر ويضله، فهل هنالك من إشكال..؟ أنا سأضع أمامكم بعض الصور والنماذج التي تجسد هذا المعنى أيها السادة:

هنالك كثيرين من المشركين الذين كانوا في العصر الجاهلي إبان بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، هؤلاء المشركون منهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة -كما يقول الله عزّ وجلّ- فهل كان اختيار الله لمن هدى الله، و لمن حقت عليه الضلالة عشوائياً؟ لا..، الذين هداهم الله هم الذين فكروا وتأملوا وحرروا أنفسهم من ربقة كبريائهم و عنادهم، هؤلاء هداهم الله ولو بعد حين، والذين حقت عليهم الضلالة هم أولئك الذين استكبروا وعاندوا، يعرفون الحق؛ ولكن عنادهم يمنعهم من الخضوع له، أمثال أبي جهل، أبي لهب، الوليد بن المغيرة، أُبي بن خلف، هؤلاء ذهبوا ضحية عنادهم، ولذلك عندما يوضح الله حيثيات عقابهم في المحكمة الكبرى يوم القيامة، ماذا يقول عنهم؟: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لم يقل يجهلون، لم يقل لا يعرفون، لو كان كذلك لصفح عنهم الباري عز وجل، و لكنهم يستكبرون.. إذاً هم ذهبوا ضحية استكبارهم، وهؤلاء هم الذين لا يهديهم الله.

***

ـ مشيئة الله تعالى لا تسلب الإنسان الاختيار:

ـ هنالك آيات في كتاب الله عز وجل.. كيف نفهمُها؟؟ الباري عز وجل يقول: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، هذا الكلام سلبٌ للمشيئة، ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إلا أن يشاء الله﴾أيضاً أيها السادة، هنا عندنا من يحاول أن يلبّس ويغالط، أو هنالك جهّال وصلوا إلى دركٍ من الجهل، فلم يعوا الكلام العربي السليم، هذه حجة تثبّت أن للإنسان مشيئة، وليست حجة تسلب الإنسان مشيئته، يقول الله عز وجل: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾.. معنى هذا الكلام: أي ما كنتم لتتمتعوا بهذه المشيئة لو لم أشأ أن أمتعكم بها، ولكني قد شئت أن أمتعكم بهذه المشيئة فهاأنتم اليوم تتمتعون بها، إذاً الآية في رصيدها الأخير تثبت للإنسان المشيئة أم تسلب عنه المشيئة؟ ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ﴾

أي لم تكن لكم من مشيئة، وكان يمكن أن تكونوا كريشةٍ في الهواءِ لو لم أشأ أن أجعلكم ممتّعين بهذه المشيئة.

ـ (الطبيب شفاني . الطعام أشبعني . أتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم..)

كلها ألفاظ مجازية جائزة والمشروط أن تكون العقيدة سليمة:

نرى بحسب الظاهر أن الماء سببٌ للري، والنار سبب لنضجِ الطعام، والدواء سبب للشفاء، هل هنالك مانع من أن نسمي الدواء سبباً للشفاء، ونتعامل بهذه الطريقة؟ لا مانع.. بشرط أن نعلم الحق الذي قلناه الآن، تكلم بذلك لأن اللغة ضيقة، ولكن اعلَم أنَّ كلمة (سبب) مجاز، لا مانع أن تقول: الدواء شفاني، وشفيت على يد فلان من الأطباء، وهذا الطعام أشبعني، لكن على أن لا تنسى أن هذا كلام مجازي، وأن الله هو الخالق، وهو الفاعل، وهو المسبب، وكل شيء بيد الله عز وجل. إذا وجدت العقيدة السليمة فلا مانع من استعمال الكلام المجازي عندما تضيق بالإنسان الحيلة.

كلنا نقول مثلاً: ذهبت إلى الطبيب الفلاني فشفيت على يده، يقول الرجل المريض للطبيب خلصني من هذا الألم الذي أعاني منه، ولو دققنا لرأينا أن كلمة (خلصنا) لا تقال إلا لله، وكل ما يمكن أن يقول الواحد منا مثلاً أن فلاناً ألقى نفسه في النار فأحرقته النار، ولكن هذا الكلام لا يؤثر مادامت العقيدة سليمة، وهذا المعنى يجرنا إلى كلمة موجزة نقولها فيما يتعلق بالتوسل بالأنبياء والرسل، يعني لو أن إنساناً توسل إلى الله بنبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، لا ضير في ذلك، كما أنه لا ضير في أن يتوسل المريض بالطبيب، بشرط أن يكون كل منهما موقناً بأن الفائدة تأتي من عند الله عز وجل، يعني الرجل الذي يتوسل برسول الله، يجب أن يكون متنبهاً عليماً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفيده شيئاً، وأن الله هو الذي يعطيه، وهو الذي يشفيه و يعافيه...

إذاً لماذا لجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لجأ إلى رسول الله كما لجأ المريض إلى الطبيب، كيف..؟ كما أن الله جعل الطبيب سبباً جعلياً لشفاء المرضى، جعل محمداً صلى الله عليه و سلم رحمةً

للعباد، ألم يقل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾؟ وقد علمنا أن محمداً عليه الصلاة والسلام حبيب إلى ربه، مكانته عالية جداً، وطبيعي بهذه الحالة أن يجعل الباري عز وجل كثيراً من الناس يغفر لهم بشفاعة محمد عليه الصلاة والسلام، هذا هو الذي يجعل الإنسان إن شاء أن يتوسل به فيقول: (اللهم إني أسألك بجاه رسولك محمدٍ صلى الله عليه وسلم أن تغفر لي)، فالله هو المسؤول، والدعاء يتجه إليه ولكننا نستشفع برسول الله. وقد علَّمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذلك الأعمى كما ورد في الحديث الصحيح أن يذهب فيتوضأ ويقوم ويصلي ركعتين ثم يقول: "اللهم إني أسألك بجاه بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في قضاء حاجتي لتقضى، اللهم فشفِّعهُ فيَّ يا كريم". لا ضير إذاً في هذا، ونحن نتكلم في قانون الأسباب والمسببات، والمشروط أن تكون العقيدة راسخة، وأن يكون الإيمان بالله سليماً ومتوافراً ومتكاملاً.

***

ـ صفات الله تعالى:

ـ بكلمة مختصرة نقول: ربنا عز وجل متصف بكل صفات الكمال، ومنزه عن كل صفات النقصان، ولا داعي إلى أن نستقصي...

قلها باختصار، واعتقد ذلك بيقين: (ربنا عز وجل متصف بكل صفات الكمال، ومنزه ربنا جل جلاله عن كل صفات النقصان)..؛ لكنَّ علماءَنا جمعوا صفات الكمال في طائفة نسميها أمهات الصفات، أمهات صفات الله سبحانه وتعالى، تحت كل صفة صفات كثيرة تندرج تحت هذه الأمهات، وقد رتبها علماء العقيدة –من قبيل التنظيم– إلى الأقسام التالية:

ـ صفة نفسية وهي صفة واحدة.

ـ صفات سلبية وهي خمس صفات.

ـ صفات معاني وهي سبعة.

ـ صفات معنوية وهي أيضاً سبعة.

والمجموع يصبح عشرين صفة، وستجدون أن كل صفات الكمال مندرجة في هذه الصفات العشرين.

ــ **أولاً:** الصفة النفسية: قلت لكم الصفة النفسية صفة واحدة ما هي؟ (الوجود) وجود الله صفةٌ له، لكنها صفة ذاتية أو قل صفة نفسية، أي وجود الله ليس شيئاً أكثر من ذاته، ليس شيئاً أكثر من كينونته الذاتية.

ــ **ثانياً:** الصفات السلبية: لماذا يسمونها سلبية؟ لأنك إذا عرّفتها لا تستطيع أن تعرّفها إلا بالسلب، يعني لا تستطيع أن تعرفها إلا بسلب ما يتنزه الله عز وجل عنه، فمثلاً سنقول:

أولها الوحدانية : عرف الوحدانية، كيف تعرفها؟ هي عدم التعدد، إذن فسرتها بالسلب..

القِدَم: كيف تعرف القدم؟ ليس له أول.

البَقاء: كيف تعرف البقاء؟ ليست له نهاية وهكذا..

من أجل هذا نسمي هذه الصفات بالصفات السلبية، أي أنك لن تستطيع أن تعرّفها إلا بسلب ما يتنزه الله عز وجل عنه.

ــ **ثالثاً:** صفات المعاني: وهي كل صفة قائمة بذات الله تعالى، يستلزم ثبوتها حكماً معيناً، مثل قولنا مثلاً:

صفة العِلم: هذه الصفة قائمة بذات الله تعالى، ثبوت هذه الصفة يستلزم حكماً معيناً وهو أن الله عز وجل عليم.

صفة الكلام: وهي ثابتة لله عز وجل، وثبوتها يستلزم أن يكون الله عز وجل متكلماً.

صفة الإرادة: وهي صفة ثابتة لله عز وجل، ثبوتها يستلزم أن يكون الله عز وجل مريداً.

إذن صفات المعاني هي صفات قائمة بذات الله تعالى، يستلزم ثبوتها حكماً لله عز وجل، وتحت هذه الصفات –صفات المعاني– وهي سبع صفات، صفات كثيرة لكنها مجملة في هذه الصفات السبع.

ـ "هلكَ المتنطعون":

ـ أنواع التنطع كثيرة جداً، وحسبكم أن تعلموا أن الذي يتنطع يعلم أنه متنطع؛ لأنه لا يبتغي بذلك وجه الله عز وجل، وإنما يريد أن يبرز من نفسه ورعاً، يريد أن يبرز من نفسه مدققاً، يريد أن يبرز من نفسه إنساناً كما تعرفه.

في العقيدة أناس يدعون أنهم من أرباب الدعوة إلى الله عز وجل، يحاولون أن يدعو الناس إلى الله عز وجل، ويدخلوا العقيدة الإسلامية بين جوانحهم، أول ما يقوله لأحدهم: أين الله؟ نعم.. أين الله، وينبغي أن يكون جوابه بلسانه وبيده: في السماء.. فإن لم يقل ذلك، ولم يفعل ذلك، فقد كفر ولم يكمل إيمانه، وشذَّ عن العقيدة الإسلامية.

يا أخي هذا من أسوأ أنواع التنطع التي نهى عنها المصطفى صلى الله عليه وسلم، هذا المسكين يكون مؤمن بالله، قلبه فياض بالإيمان بالله عز وجل، ولئن سألته: الباري عز وجل له مكان؟ يقول: أعوذ بالله تنزه الله تعالى عن المكان، هل يحده زمان معين؟ يقول أعوذ بالله لا يشبهه شيء، يعرف هذا بالفطرة وبكل بساطة، تأتي أنت لتزجَّه في أشياء ليس له فيها وتحيره! وهذا ما يجعله متهماً بالكفر عند هؤلاء الناس.

وإذا كان هذا الإنسان عنده شيء من الثقافة الإسلامية والمعرفة بدين الله، يمكن أن يجيب مثل هؤلاء الناس كما أجابهم الله، يقال له أين الله؟ يقول: أقول كما قال الله عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾، وأقول كما قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أن يخسف بكم الأرض﴾، وأقول كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. أقول كل هذا الذي قاله الله عز وجل...، فيقولون : لاااا.. يجب أن تقول أنَّ الله في السماء، والآيات الأخرى لا تذكرها، هذا أسوأ أنواع التنطع، ولهذا يقولُ المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "هلك المتنطعون".

يقولون: نحن نأخذُ كلامَ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلَّم، لأنه صلى الله عليه و سلم سأل الجارية: "أين الله"؟ فأشارت....، هنالك شيء اسمه: (واقعة حال)، واقعة حال في الشريعة الإسلامية من أهم الأمور التي ينبغي أن يعلمها كل مسلم فضلاً عن داعية إلى الله عز وجل...، هذه إنسانة لم تكن تنطق، ويريد

صاحبها أن يعتقها، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستوضح مدى إيمانها (أي أن يعرف هل هي مؤمنة أم لا)، فقال لها عليه السلام: "أين الله؟"، فمن الممكن أن تشير إلى أي صنم، لكنها أشارت إلى السماء..، إذاً معنى ذلك أنها تؤمن بالله ولا تؤمن بالأصنام، فأشار النبي صلى الله عليه وسلَّم لصاحبها أن أعتِقها (هي مؤمنة)، هذه واقعة حال. أكلُّ إنسان يجب أن يعمل كهذه الجارية المسكينة التي لا تتكلم..؟

الباري عز وجل ذكر عن نفسه كلمات كثيرة قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾، قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾، إذا أردت أن تؤول فعليك تأويل جميع الآيات، وليس عليك تؤول البعض..، ونحن نقول –كما قال السلف– كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾، نقول كما قال بدون كيف، وبدون أن نجعل من المكان حيزاً لربنا سبحانه وتعالى، أو أن نجعل من الزمان حيزاً لربنا سبحانه وتعالى، نعم نقول هذا وهذا وذاك، إن قلت هو في السماء فلا ضير؛ لأنه قال عن ذاته: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾، إن قلت هو معنا أينما كنا لا ضير ولا مانع...، لكن تعميم الأجزاء بذكرها على النص فلا، أي مثلاً من الأماكن الحمام، هل نقول الباري في الحمام؟ لا نقل هذا الكلام أدباً مع الله سبحانه وتعالى، لكن عند الكلام العام نقول كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾، فإن التقطتَ آيةً من هذه الآيات لأنها أعجبتك ووافقت مزاجك، وطويت الآيات الأخرى عن الذاكرة، فأنت إذاً (متنطع)، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "هلك المتنطعون"..، كذلك الإشارة بالإصبع (تنطع)؛ الجارية لها سبب من أجل ذلك أشارت، أما أن تلزم الجميع على الإشارة بالإصبع من أجل أن ترى جهة العلو وعليهم فعل ذلك فلا. وقد قلت لكم أن أحد الطلاب في أمريكا أو في أوربا لا أذكر، قال للسائل: أنت تريد مني أن أقول فوق أي العلو هنا– حسناً، ولكن هذه الجهة التي هي العلو هي نفسها جهة السفل في البلد المقابل لهذه البلدة التي أنا فيها، يعني أنت نسبت الباري عز وجل إلى السفل في الوقت الذي نسبته إلى العلو، نسبته إلى السفل في مكان، وإلى العلو في مكان آخر، لماذا هذا التنطع؟ قل الله يتصف بالعلو كما قال، ولا تشر، لا تحدد العلو أين، إن حددت العلو فقد جعلت للباري حيزاً، هذه أمثلة أذكرها لمعنى التنطع الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم...

ــ هل الإنسان أكرم المخلوقات كلها؟ هل هو أفضل حتى من الملائكة؟

ذهب جمهور العلماء إلى هذا، قالوا: إن خواصّ البشر –وهم الرسل والأنبياء– أفضل من خواصّ الملائكة، وعوام البشر –وهم سائر المؤمنين بالله إيماناً حقيقياً– أفضل من عوام الملائكة، وأما الكفرة الفجرة الذين خُتم لهم بالسوء، فهؤلاء لا يدخلون في هذا الحساب، ألا ترون إلى قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، (هذا كلام الجمهور)...

والدليل على ذلك: أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، والسجود لآدم تعبيرٌ عن السجود لهذا المخلوق أجمع.

وكذلك الدليل على هذا أن الله سبحانه وتعالى شرّف الإنسان بالتكليف، أما الملائكة فغير مكلفين، بمعنى أن الله عز وجل أودع في الإنسان الغريزة الشهوانية، والنفس الأمارة بالسوء، إلى جانب الروح العلوية، ومن ذلك ينشأ الصراع، ولابد أن يسير الإنسان في فجاج متعبة، وأن يجاهد النفس والهوى، حتى يُصَعّد نفسه إلى الدرجة التي شاءها الله سبحانه وتعالى، وهذا التكليف لم يُشرّف به الملائكة، الملائكة بالغريزة يعبدون الله بالطبع، وأما الإنسان فهو الذي يقوم الليل ويتقرب إلى الله إذ يغالب نومه، ويغالب برد الشتاء، ويغالب قصر الليالي في الصيف، والإنسان كما يقول محمد إقبال: هو الذي يتمتع بلذة الحنين إلى الله عز وجل والشوق، أما الملائكة فلا يشعرون بهذا المعنى... يقول محمد إقبال في إحدى قصائده: نعم الملائكة لا يفتؤون عن التسبيح والتحميد، ولكن أين من الملائكة أنيني في الأسحار، لا يتمتعون بهذا المعنى، كل ذلك دليل على أن الإنسان كائن مشرف ذو مرتبة عالية عند الله عز وجل، إلا إن قضى على نفسه بأن يهبط إلى الدرك الأسفل فقد حقَّ عليه عندئذ قول الله عز وجل:﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

***

ـ من الأمور الغيبية (الجن و الملائكة):

والآن، ما هي هذه الأمور الغيبية التي يجب أن نعرفها، والتي أمرنا الله عز وجل أن نكون على بينة منها، ومنهجنا قد أصبح واضحاً..؟

هذه القضايا الغيبية كثيرة، ولكنا سنتناول منها ما ينبغي للمسلم أن يكون على بينة منه، بحيث لو جهله اهتزَّ إسلامه في كيانه، واندلق ربما إلى هاوية الكفر والضلال.

ـ أولاً: ينبغي أن نعلم ونستيقن أن هنالك خلائق أخرى من غير الإنسان، هنالك مخلوقات اسمها الجانّ، وهنالك مخلوقات أخرى اسمها الملائكة، ونحن لم نر الجانّ ولا الملائكة، ولا سبيل لنا إلى معرفتهما عن طريق التجربة والمشاهدة، و لكنا أصغينا إلى كلام الله عز وجل فرأيناه بعد أن قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾. وقال: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، وقال:﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، إلى آخر ما هنالك من آيات، هذا كلام الله، وقد عرفنا واستيقنّا بالدليل العلمي أنه ليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم، ولا كلام غيره من البشر أو الكائنات. إذاً: فخبر الله هذا الذي وصل إلينا بيقين يمتص كل ريبة، ويؤكد صدق هذا الخبر، إذاً: هنالك خليقة اسمها الجنّ، فلو أن إنساناً ارتاب باسم العلم، وقال: أنا لم أرى الجانَّ وأنا لا أصدق بهم فقد كفر..؛ لأنه أنكر كلاماً صريحاً واضحاً من رب العالمين سبحانه وتعالى.

ـ إنكار وجود الملائكة كفر:

و أما من يرتاب بوجود الملائكة فقد كفر وإن هو نطق بالشهادتين؛ لأن كفره بالملائكة يساوي كفره بالقرآن، أو بآية من صريح كتاب الله سبحانه وتعالى في القرآن.

فإن قال لك: ولكني لم أرهم، فهذا من الحمق بمكان، قل له: ومن قال لك إن مقياس وجود الأشياء رؤية بصرك لها؟ ما أكثر الأشياء التي لا يمكن أن يراها البصر، ومع ذلك فالعلماء كلهم موقنون بأنها أشياء موجودة .

***

ــ إذن فنحن بمقدار ما نؤمن بالغيب الذي جاء به القرآن، بمقدار ما نمسك عن الخوض في طريق الغيوب التي يمكن أن تزجنا في أودية تيهٍ وخرافة ونحو ذلك.

ــ من الأمور الغيبية (الأحداث التي تتعلق بالموت):

الأمر الآخر من الأمور الغيبية التي يجب أن نعرفها: أحداثٌ تتعلق بالموت، ولا أقول الموت، الموت ليس أمراً غيبياً أيها السادة والسيدات، الموت من الأمور الخاضعة للتجربة والمشاهدة، نحن في كل يوم نشاهد أشخاصً نودعهم، ونراهم وهم ينتقلون من الحياة الآمنة المطمئنة إلى ما يسمى بالموت، فالموت ليس أمراً غيبياً، ولكن الأمر الغيبي أمورٌ وأحداثٌ تتعلق بالموت وهي:

أولاً: **قبض ملك الموت للأرواح:** هنالك ملك وظفه الله عز وجل وأقامه على قبض الأرواح (هذا أمرٌ غيبي)؛ لأننا عندما نودِّعُ موتانا، ونجدهم يلفظون أنفاسهم شيئاً فشيئاً لا نجد ملكاً ولكنها الحقيقة، انظروا إلى قول الله يخبرنا بهذا، هذا هو الضياء العلمي الذي يجعلنا نؤمن بذلك: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.. إذن هنالك ملك وظفه الله سبحانه وتعالى في قبض الأرواح.

***

ــ سؤال القبر:

ــ هنالك ملكان أيضاً إذا سوّي الإنسان في قبره، وانصرف عنه أهله وأقاربه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتيانه فيسألانه من ربك..؟ وما دينك..؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم..؟ هكذا أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأحاديث التي وردت في ذلك بلغت مبلغ التواتر المعنوي، إذاً هي أخبار قطعية.

وأعود فأقول: أحدنا قد يسأل: هذا الإنسان خرج من دار التكليف، فلماذا تلاحقه الأسئلة بعد موته أيضاً؟ والجواب: أن هذا السؤال ليس مظهراً لتكليفٍ يتم بعد الموت.. لا، هذه الأسئلة وجوابها،

انعكاس لماضي الإنسان في حياته، فإذا رحل الإنسان عن هذه الحياة الدنيا بيقينٍ إيماني يغمر قلبه، وإذا كان يتعامل مع الحياة على أساس أنها جسر يوصله إلى هذا المقر، فإن هذه الأسئلة تكون نعيماً له، وما أسرع ما يجيب لأنه يأخذ إلى قبره ذخراً من يقينه السابق الدنيوي، فيقول: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد رسولي، ويقال له: قد عرفنا إن كنت لصالح، وانظروا.. يقول الملكان: قد عرفنا، إذاً فيم السؤال؟ هذا السؤال تجسيد لواقعٍ ماضٍ تمتع به هذا الإنسان.

***

ــ ومن الأمور المتعلقة بالموت نعيم القبر وعذابه:

أيضاً هما أمران حقيقيان، دلَّ عليهما الخبر المتواتر قرآناً، والخبر المتواتر حديثاً، انظروا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والملائكة باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، اليوم.. لا يوم القيامة، أي أن العذاب ينتظرهم ساعة خروج الروح، هذا كلام الله عز وجل، ويقول الباري عز وجل في مكان آخر عن فرعون وآل فرعون: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۞ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، إذاً هنالك نوعان من العذاب، أحدهما عرضٌ على النار وهو في القبر، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، وانظروا إلى كلمة (يعرضون) ما قال يدخلون؛ لأن الدخول يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

ــ **ما هو نعيم القبر؟** هذا النعيم يتمثل في أن الله ختم لهذا الإنسان بخاتمة المغفرة أو الرضوان – نسأل الله عز وجل أن يكرمنا بذلك– إذاً يجب أن نؤمن بأن هنالك نعيماً في القبر وأن هنالك عذاباً، وينبغي أن نكون على بينة من هذه الحقيقة .

***

ـ العلامات التي تقع بين يدي الساعة:

وهنا لابد أن نذكركم بأن ميقات قيام الساعة أمرٌ مجهول عن عباد الله جميعاً، بل عن الخلائق جميعاً، فلا النبي، ولا الرسول، ولا الصالحون، ولا العلماء، ولا الفلاسفة، لا يمكن لأحدٍ منهم في أي عصرٍ من العصور أن يعلم الميقات الدقيق لقيام الساعة، وكلنا نقرأ كلام الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ -إنما أداة حصر- وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولكنَّ الله تعالى -وقد أخفى عنا ميقات قيام الساعة- نبهنا إلى علامات بين يديها، وأذكر منها على سبيل المثال: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عمر بن الخطاب، الحديث المشهور الذي يقول في أوله: (بينما نحن جلوس عند رسول الله إذ طلع علينا رجلٌ، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، و لا يعرفه منا أحد...، وجلس إلى رسول الله يسأله إلى أن كان آخر سؤال: متى الساعة؟ قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"، قال: فما هي أشراطها؟ قال: "أن تلد الأمة ربتها"، أي: أن يشيع العقوق بين الأبناء والأمهات، أو البنات و الأمهات، بحيث تكون الأم أمَةً لابنتها، وتكون الابنة سيدة، أي تعامل أمها معاملة السيد أو السيدة مع الأمة أو العبد، ويقول بعد ذلك: "وأن تجد الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان"). ولا أريد أن أضيف إلى كلام رسول الله شرحاً، فبوسعنا جميعاً أن نعلم مصداقه.

كذلك الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "صنفان من أمتي لم أرهما قط"، أي يكونون قرب قيام الساعة: "نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة". جمع سنام وهو سنام البعير، "ورجال يحملون سياطاً كأذناب البقر يضربون بها الناس، أولئك لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا عام". وأحاديث كثيرة أخرى:

"لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بزخرفة المساجد"، هذه الأشراط أشراط صغرى، ولا إشكال في أن لا يعرفها الإنسان؛ لأن كثيراً من العوام لم يسمعوا بها قط..، لكن هنالك **أشراطاً كبرى** ينبغي أن نكون على بينة منها، وسنذكر أهم هذه الأشراط -وبإمكانكم أن تعودوا إلى سائرها في المصادر المعروفة-:

أولاً: ظهور الدجال.

ثانياً: نزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

ثالثاً: ظهور خليقة على وجه الأرض تسمى يأجوج ومأجوج.

رابعاً: ظهور الشمس من مغربها، (وذلك إيذان بإغلاق الله لباب التوبة). وغيرها.

***

ـ أولاً: ظهور الدجال:

ـ أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الرجل (الدجال)، الذي يكون ظهوره شرطاً من أشراط الساعة الكبرى، أخبرنا بأحاديث كثيرة جداً، وكلها صحيح، بلغت مبلغ التواتر المعنوي:

ففي حديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أُنذِرُكُمُوه، وما من نبيٍّ إلا وقد حذَّرَ أمّتَهُ منه، ولكني أقول فيه كلاماً ما قاله أحد، إن عينه الواحدة طافية -أي إنه أعور- وإن ربكم ليس بأعور". -أي فلا تصدقوه لأنه يدعي الربوبية-.

***

ـ الآية الثانية من آيات قرب قيام الساعة: نزول عيسى عليه الصلاة والسلام:

ولابد أن نفصل القول في هذه المسألة أكثر، نقول: (نزول عيسى)، إذاً عيسى عليه السلام لم يمت؛ لأننا لا نقول من آيات الساعة إحياء الله لعيسى ؛ بل نزول عيسى، وهذه صيغة الحديث..

إذاً سيدنا عيسى حي -يجب أن نعلم هذا- وهو لم يمت بعد، ولكنه سيموت في الأرض بعد أن ينزل. ما الدليل على أن سيدنا عيسى حي وليس بميت؟ لابد أن أقول كلاماً دقيقاً مفصلاً في هذا لأن هناك فئة من الزنادقة المبطلين صنيعة بريطانيا يفسدون عقول المسلمين، يأخذون المال الغزير سراً، ويحاربون به دين الله جهراً، هم أتباع غلام أحمد القادياني -أي القاديانيون- هؤلاء الأشخاص المدلّلون على بريطانيا.

سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام لم يمت بعد، ما الدليل على ذلك؟ الدليل قول الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. ثمَّ يقولُ بعد ذلك: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۝ بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ﴾، نحن عرب..، وانظروا معنى هذا الكلام الواضح الصريح القاطع: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۝ بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ﴾ هذه آية..

الآية الثانية: يتكلم الله في سورة النساء عن سيدنا عيسى وكيف أن اليهود لغو فيه، وكيف أن المبطلين ألّهوه، يقول الله عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، أي لشرط من أشراط الساعة، وفي قراءة: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾.

والآية الثالثة قول الله عز وجل:﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ –الكلام أيضاً عن سيدنا عيسى– قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، إذاً هو لم يمت بعد بنص القرآن: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾، أي لابد من فئة من فئات لأهل الكتاب أن يؤمنوا بعيسى عبداً لله كما أخبر الله عنه لا إلهاً، ولابد أن يكون هذا في دار الدنيا وقبل موت عيسى.

هذه الآيات قاطعة صريحة إلى جانب الأحاديث: "ليَنزلنَّ فيكم عيسى بن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب"، معنى هذا الكلام: يكسر الصليب، أي تنتهي أسطورة الصلب من عقول الناس، ويقتل الخنزير فيغدوا محرماً على وجه الأرض أجمع، وتنتهي الحرب فيعود الناس كلهم إلى ملة واحدة، ودين واحد.

***

ـ أما يأجوج ومأجوج:

هذا الاسم ورد في القرآن، ولا نعلم شيئاً عن طبيعة هذه الخليقة، ولا شيئاً من صفاتهم ؛ لأن المسألة أمرٌ غيبي، فما جاءنا عبر نفق المنهج العلمي للغيبيات أخذنا به، وما لم يأتنا من هذا النفق نَكِلُ علمه إلى الله سبحانه وتعالى.

الباري سبحانه وتعالى يقول: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۞ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، ويقول الله عز وجل في أواخر سورة الكهف، مستعرضاً قصة رحلة الإسكندر المقدوني، الذي يسميه القرآن ذو القرنين، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ۞ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ۞ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ۞ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ۞ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ -أي يأجوج ومأجوج- وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾.

إذاً هذه الخليقة موجودون، وبيننا وبينهم سد كما يقول الله عز وجل، فإذا جاءت اللحظة التي لا يعلم ميقاتها إلا الله، تهاوى هذا السد، وانتشر هؤلاء المخلوقات في الأرض، وأفسدوا الحرث والنسل كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم -و قد ورد أحاديث كثيرة في الحديث عنهم يضيق الوقت عن استعراضها- لكن من جملة ما يقوله المصطفى صلى الله عليه وسلم: "أنهم يتجهون ويصلون إلى بحيرة طبرية، فيشربون ماءها، وتجف هذه البحيرة، فيصل آخرهم وقد جف الماء في هذه البحيرة، فيقول آخرهم وصولاً: لقد كان في هذه البحيرة يوماً ماء، ثم إن الله يرسل عليهم النبق...."، وهو نوع من الحشرات الجوية، فيكون هلاك هذه الخليقة بواسطة هذه الحيوانات، هذا أمرٌ غيبي أيضاً، ولولا أن القرآن أخبرنا عنه لما كان لنا أن نقول شيئاً من هذا الكلام، ولحصنَّا عقلنا ضد الحديث عنه.

***

ــ كيف تقوم الساعة و تنعدم الحياة؟

والأحداث التي تتعلق بقيام الساعة تطلق على مرحلتين اثنتين، الأولى منهما تسبق الأخرى، ولا ندري المدة التي تقوم بين هاتين المرحلتين، و التي تفصل بينهما، الله أعلم بذلك..

المرحلة الأولى: مرحلة الدمار، وتناثر هذا الكون بعد انتظامه على الشكل الذي نراه.

والمرحلة الثانية: هي إعادة بناء الله الكونَ على نسق جديد.

والمرحلة الأولى تتم بنفخٍ في الصور، والثانية تتم أيضاً بنفخٍ في الصور، ونقرأ في هذا قول الله عزّوجلّ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، إذاً هنالك نفخان في الصور:

الأول: نفخ يؤذن بالدمار والتشتت، وهلاك كل شيء.

والنفخ الثاني يعيد هذه الأطلال وهذا الشتات مرة أخرى إلى النظام، لكن لا على هذا النسق الذي نراه، بل نظام جديد، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ -أي والسموات غير السموات- وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

_ حشر الأجساد و عودة أرواحها إليها وهول الموقف:

عندما يحشر الناس، حشرُهم وحده يدخل الرهبة التي لا توصف في القلوب، لأن الإنسان يكون قد أمضى حياته كلها وهو غير متهيئ لهذا اليوم، فإذا قام من ترابه، و خرج من جَدَثِه كما يقول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، تعالى الصّراخ، وعلموا أن هذا هو الحق الذي جاء به الرسل، وكانوا بين مصدق ومرتاب، وبين ساخر وبين غير مبالٍ، فهاهو هذا الميقات قد حدث، هذا نفسه يدخل رعباً شديداً في القلوب، ثم إن الألم يتضاعف من أشياء أخرى، فالازدحام ازدحام الخلائق، وحرارة الشمس التي تتضاعف، ودنوها قدراً الله أعلم به من رؤوس الخلائق، والظمأ الذي يأخذ بالأكباد، والخوف من المصير وطول الموقف، كل ذلك من مظاهر هذا الهول الذي لا يمكن أن يصفه إنسان إلا عندما يراه، أمرٌ لا مجال لإنكاره، ولا معنى للارتياب فيه، شيء نحن مقبلون عليه، طابور ونحن منضبطون به، والنتيجة حتمية، ما معنى أن نتجاهله، وما معنى أن نغمض العين عن شيء نحن سائرون بشكل آلي إليه..؟

***

ــ الجنة والنار عاقبة أخيرة ودائمة:

ثم إننا نَسأل: ما هو المدى الذي ينتهي عنده نعيم الجنة، وينتهي عنده عذاب النار؟

والجواب: لا متى....، فنعيم الجنة أبديٌ لا نهاية له، وعذاب جهنم لابثين فيه (أي الكافرين والجاحدين)، لا نهاية له ولا مدى، وهذا معنى الخلود الذي وصف الله سبحانه وتعالى به كلاً من الجنة، وكلاً من النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ۞ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، ويقول أيضاً عن الكافرين: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾، ويؤكد هذا فيقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾. فلا نهاية لا لعذاب الكافرين، ولا لنعيم أهل الجنة.

ــ و هذا الكلام يذكرنا بمشكلتين تثوران في أذهان بعض الناس، نجيب عنهما إن شاء الله:

ــ المشكلة الأولى هي: أن الكافر صحيحٌ كان كافراً، لكنه عاش خمسين سنة أو سبعين سنة أو مئة سنة، فكفره غطاه من الزمن مئة عام، إذاً فليعذَّب مئة عام، لماذا ينال العذاب الدائم والواصب، كذلك الذي رحل إلى الله مغفوراً ملتزماً بأوامر الله جهد استطاعته، نعم كان مستجيباً لأوامر الله مطيعاً له فيما ما أمر خمسين عاماً أو مئة عام كذلك الآخر، فلماذا يلقى هذا النعيم الذي لا نهاية له ؟ الجواب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم، ولكنه ينظر إلى قلوبكم"، الجزاء الذي يُعطاه الإنسان يوم القيامة، صحيحٌ أن العمل كشّافٌ عن سببه وخلفياته، لكن مناط هذا الجزاء في القلب، وإن الله عز وجل قد علم أن هذا الإنسان الذي مات جاحداً لو عاش مثل عمره، ولو عاش عمر الدهر كله، فلسوف يظل على حالته هذه، فلما كان قد عقد العزم على أن يبقى على كفره، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقابه بما يتناسب مع عزمه هو، وانظروا إلى قوله عز وجل في بيان هذا السبب: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ــ والمشكلة الثانية هي السؤال التالي: قد عرفنا أن البقاء من صفات الله وحده، فالله وحده هو الذي يتصف بالبقاء والأبدية، وعندما نقول إن أهل الجنة ينعمون في الجنة بدون نهاية –أي يكونون مخلدين في الجنة– وأن أهل العذاب يكونون مخلدين في عذابهم، فإن إشكالاً يقع من جرّاء هذا الكلام،

خلاصته: أن أولئك الناس عندئذٍ يشتركون مع الله في صفة البقاء، وقد عرفنا أن صفة البقاء والخلود من خصائص رب العالمين عز وجل، فما الجواب؟

الجواب: أن صفة البقاء من صفات الله عز وجل التي لا يشاركه فيها أحد..، لكن ما هي صفة البقاء؟ أي بقاء الله عز وجل بذاته دون حاجة إلى من يبقيه، ودون حاجة إلى من يحميه من الهلاك، بقاؤه ذاتي، وخلوده ذاتي، هذه الصفة كانت ولا تزال ولن تزال خاصة بالله سبحانه وتعالى، أما الإنسان يوم القيامة إذ يخلد في الجنة أو في النار؛ فخلوده بتخليد الله عز وجل له، وخلود الكافر أيضاً بتخليد الله سبحانه وتعالى له، بحيث لو أن الله تعالى تخلى عنه، يتبدد وينتهي ويزول، وهذا ليس صفة ذاتية من صفات البقاء، وقد نوّهَ القرآنُ بهذا المعنى ولفت النظر إلى الجواب عن هذا الإشكال، وذلك عندما قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، لماذا يقول هنا: ﴿إِلاَّ ما شَاء رَبُّكَ﴾؟ هو يقول: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فما معنى الاستثناء؟

الاستثناء هذا معناه: أي هؤلاء مخلدون وهؤلاء مخلدون، ولكن فلتعلموا أن خلود كلا الفريقين ليس خلوداً ذاتياً، خلود منوط بمشيئة الله عز وجل، حتى إذا شاء الله عز وجل –لو شاء– وهو لا يشاء، قضى بتخليد الله إياهم، لكن لو شاء أن يفنيهم لأفناهم، فبقاؤهم مخلدين أشبه ببقاء الطفل محمولاً بيدي أبيه.

***

ــ رؤية العبد ربه سبحانه و تعالى:

موضوع رؤية العبد ربه يتفرع إلى ثلاثة فروع:

ــ **الفرع الأول:** (أصل الرؤية) أهي من الممكنات عقلاً أم من المستحيلات؟

جمهور المسلمين –وبكلمة جامعة أهل السنة والجماعة– كلهم متفقون على أن رؤية العبد ربه من الممكنات، و قد استدلوا على إمكانية هذه الرؤية بكلام الله عزَّ وجل، يقول ربنا عزّ وجلّ عن المؤمنين الذين ختم الله لهم بخاتمة الحسنى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾كلامٌ صريح. ويقول عن الجاحدين والكافرين والذين كتب عليهم الشقاء الأبدي: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، طبعاً لماذا قضى الله بأن يكونوا محجوبين عن الله ؟ عقاباً لهم.. وكذلك المؤمنون الذين ختم لهم بالحسنى: هم لم يعاقبوا، إذاً لن يكونوا محجوبين عن الله عزّوجلّ.

إذاً انتهينا من الحديث عن رؤية العبد ربه سبحانه وتعالى إلى أن رؤية العبد ربه من الممكنات العقلية وليس من المستحيلات.

ــ **ثانياً:** الإنسان إذا ختم له بخاتمة حسنة ترضي الله عز وجل سيرى ربه، وسيكون هذا تاج النعيم الذي يكرم اللهُ عزَّ وجلَّ به عباده يوم القيامة، والمأمول أن يجعلنا الله جميعاً من أصحاب هذه الخاتمة الحسنة.

إخواني: باب الكرم مفتوح، ورحمة رب العالمين لا حد لها، فقط يجب على الإنسان أن لا يكون مستكبراً على الله، والمعصية عندئذٍ ستسوق الإنسان إلى التوبة، وابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى قال في حكمة من حكمه: (معصية أورثت ذلاً وانكسارا، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً)، فكن العبد الذليل لله، وأعلن عن ضعفك وعجزك على باب الله وأنا أبشرك برحمة الله...

***

ــ الفرق بين الإسلام والإيمان والعلاقة بينهما:

ــ الإسلام: يعني الاستسلام الظاهر لأركان هذا الدين.

ــ أما الإيمان فمكانه القلب. إذاً: هما مختلفان في المعنى، لكن أرأيتم لو أن رجلاً استسلم ظاهره لأركان الإسلام حيث نطق بالشهادتين، وأذعن لفرضية الصلاة والصوم والحج والزكاة، ولكن قلبه كان

منطوياً على نقيض ذلك، هذا مسلم لكنه غير مؤمن، هل ينجيه إسلامه يوم القيامة؟ لا ينجيه إسلامه يوم القيامة.

أرأيتم لو أن إنساناً أيقن باطنه، أي أيقن قلبه وأيقن عقله الخفي عنا بوجود الله وبوحدانيته وبصفاته وبفريضة الصلاة والصوم والحج والزكاة، لكنه استكبر عن أن يعلن عن ذلك بلسانه، واستكبر عن أن يذعن لذلك بكيانه، هذا الإنسان هل ينجيه إيمانه القلبي يوم القيامة؟ كذلك لا ينجيه إيمانه القلبي يوم القيامة.

إذاً هنالك بين الإيمان والإسلام تلازم، ولكي يكون إسلامك ينجيك يوم القيامة لا بد أن يكون مقروناً بالإيمان، ولكي يكون إيمانك مقبولاً عند الله يوم القيامة لابد أن يكون مقروناً بالإسلام..

لكن إذا نظرنا إلى الإنسان في دار الدنيا بقطع النظر عن يوم القيامة، مقياس الحكم في حق الناس في دار الدنيا ما هو؟ هو الإسلام، لأن القضاء إنما يقضي بالظاهر، ولا سلطان للقاضي على الباطن، فإذا رأينا إنساناً شهد شهادة الإسلام، وأذعن أن الصلاة واجبة، والصوم واجب وما إلى ذلك.. إلى آخر أركان الإسلام، لابد أن نحكم بأنه مسلم، ربما كان منافقاً، ربما كان كاذباً، ليكن ذلك، هو في دار الدنيا يعامل معاملة المسلمين، لكنّ هذا الإسلام لا ينجيه يوم القيامة، ولكي يكون إسلام هذا الإنسان منجياً له في دار الدنيا ويوم القيامة، لابد أن يكون إسلام وإيمان، ينبغي أن نعلم هذا.

كذلك ينبغي أن نفهم الشيء التالي: إنسان رحل عن دنيانا هذه وظاهره كافر، لم نسمعه نطق يوماً ما بشهادة الإسلام، لم نجد أنه أذعن يوماً ما لأركان الإسلام ،أكيد لا نستطيع أن نحكم على إسلامه..، ونعامله معاملة غير المسلمين.

لكن هل يجوز لنا أن نقول إنه غير مؤمن؟ لا يجوز.. لا تدري؛ لأن الحكم على الإيمان شرطه الإطلاع على القلب.

***

ــ من أحكام الردة:

أما يتعلق بطاعات وعبادات المرتد السابقة (قبل ردته):

الأمور التي ذكرها الفقهاء فيما يتعلق بالأحكام والذيول الفقهية المتعلقة بالردة كثيرة جداً، فأعتقد أنه لا مصلحة لنا ونحن ندرس العقيدة أن نفاجأ بأننا قد انتقلنا إلى الحديث عن مسائل فقهية ستستغرق أربعة أو خمسة دروس على الأقل، لكن هنالك مسألة واحدة من هذه المسائل ينبغي أن نتحدث عنها في الواقع لأن هذه المسألة مما عمّت به البلوى في هذا العصر:

هنالك كثيرون يسبون الدين، فيمرقون بسبب ذلك من الإسلام، ويقعون في الردة، علم أحدهم بذلك أو لم يعلم، وهؤلاء في الواقع –مع الأسف– كُثُر، لاسيما في بلادنا (خارج سورية قلَّ أن تجد إنساناً إذا غضب يستعمل عبارات الكفر، سب الدين أو نحو ذلك، لا تجد هذا إلا في سوريا –مع الأسف–، وأظن أن هذه الظاهرة قد تناقصت أيضاً في سوريا بالنسبة لما كان عليه الأمر في السنوات السابقة، أي أن هذه الظاهرة تناقصت كثيراً)، هنالك مشكلة تقع من جرّاء كثرة النطق بهذه الكلمات التي تتسبب عنها الردة، وهي مشكلة انفساخ عقد الزواج، لا نقول الطلاق، الردة لا تسبب طلاقاً، لكن تسبب فسخ العقد، وينبغي أن نعلم هذا الحكم، لأن هذا أمر خطير، زيدٌ من الناس نطق بالكلمة التي أخرجته من دائرة الإسلام إلى الكفر، ولم يعلم ما الذي ترتب على ذلك فيما يتعلق بعلاقته مع زوجته.. ما الذي يترتب على ذلك؟

هذا الأمر من الأمور الفقهية، لكن ينبغي أن نعلم حكم الشريعة الإسلامية في هذا الأمر بالذات، لأنه مما عمت به البلوى كما قلت لكم، وخلاصة الحكم: أن زيداً من الناس إذا كفر –أي نطق بكلمة كفر– مثل الذي يسب الدين، مثل الكلمات التي ينطق بها أحدهم أثناء غضب أثناء مماحكة (مشاحنة) مع آخرين وكذا، هو في هذه الحالة ارتد، طبعاً إذا صحا إلى هذا الذي فعله بنفسه وعاد فتشهد شهادة الإسلام، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وبرئتُ من كلِّ دينٍ غيرِ دينِ الإسلام، رجع إلى حظيرة الإسلام.

لكن عندما ارتد ما هي الآثار التي ترتبت على ردته بالنسبة لعلاقته مع زوجته؟

خلاصة الحكم الفقهي: أن هذا الإنسان إذا رجع إلى حظيرة الإسلام خلال مدة عدة الزوجة، (عدة الطلاق: ثلاثة أقراء أو ثلاثة أشهر)، إذا رجع إلى حظيرة الإسلام خلال هذه المدة، سلمت العلاقة الزوجية من الفسخ، وبقيت العلاقة الزوجية على حالها، وهذا من لطف الله سبحانه وتعالى.

ـ السبيل إلى ترسيخ الإيمان في القلب:

و الآن ما السبيل إلى أن نجعل الإيمان بالله عزّ وجلّ يهيمن على القلب والوجدان بعد أن هيمن على العقل والإدراك، ما سبيل ذلك؟

سبيل هذا أن ننمي إيماننا هذا بعد أن غرسناه في ساحة العقل، أن ننميه بغذاءٍ واحدٍ لا ثاني له، لهذا الإيمان العقلاني غذاء كما أن للجسم غذاءه، فما هو غذاء الإيمان هذا؟ هذا الغذاء يتمثل في الإكثار من ذكر الله عز وجل، والإكثار من مراقبة الله، وصفات الله سبحانه وتعالى، وفي الإكثار من شكر المنعم عز وجل، مع فطم الفم عن المال الحرام جهد الاستطاعة، ومع التحرز جهد الاستطاعة عن المحرمات، فكيف يكون هذا؟

ـ لا بدَّ أن نقول كلمة ولو كانت موجزة في هذا الصدد:

ماذا نعني أولاً بذكر اللهِ عزَّ وجلَّ بعد أن آمنت عقولنا بالله سبحانه وتعالى؟

لست أعني أيها السادة بذكر الله الحركة التي يدور بها اللسان، ككلمة سبحان الله.. سبحان الله.. دائماً، ولست أعني بها حركة السبحة باليد، كل هذه آثار للذكر، وليست هي الذكر الحقيقي الجوهري، المراد بذكر الله عز وجل: أن لا يكون القلب غافلاً عن الله سبحانه وتعالى، وانظروا إلى هذا المعنى كيف يتجلى في قول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾، أمرنا الله بالذكر، وأوضح لنا أن مراده بالذكر أن نذكر الله في أنفسنا – أي في قلوبنا– وأن لا نكون من الغافلين، ولكن اللسان بريد القلب، وأداة الفؤاد، فلا ضير بل يحسن أن يتحرك اللسان ويلهج بشيءٍ من التسبيح أو الاستغفار أو الحمد أو التهليل، فإن حركة اللسان هذه إذا استمرت توقظ القلب.

***

ــ ثمرة الإيمان بالله عز و جل:

ــ ينبغي أن نعلم أنّ ثمرة هذا الإيمان الذي استقر في العقل، ثم هيمن على القلب، ثمرته: أن نقف تحت مظلة حكم الله طائعين خاضعين راضين، وأن نعلم يقيناً أن الحاكمية في هذا الكون إنما هي لله سبحانه وتعالى، فهو الحاكم ونحن عبيده، له أن يأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وليس علينا إلا السمع والطاعة، هذه هي ثمرة الإيمان باللهِ عزَّ وجلَّ في حياة الإنسان من حيث السلوك الظاهري، وانظروا في هذا إلى قول الله سبحانه وتعالى:﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾. ربط البيان الإلهي بين الإيمان والخضوع لحكم الله سبحانه وتعالى.

***

ــ الخاتمة:وفي كلمات موجزة أختم بها محاضراتي هذه أقول:

إن العقيدة الإسلامية حقيقة قائمة على دعائم العلم، وما أعرف قدسيةً لشيءٍ أكثر من العلم، فمن جنح عن الإسلام فقد جنح عن سبيل العلم، وكلامنا الذي سلف دليل على ذلك.

الشيء الثاني: أن اصطباغ العقل بالعقيدة الإسلامية بالمنهج العلمي الراسخ يري الإنسان هويته، ويجعله يقف أمام مرآة ذاته بعد طول تيه، وبعد طول شرود، مرآة هويتك يا أخي أن تقف أمام حقائق العقيدة الإسلامية، فإذا جلوتها أمامك ببصيرة نافذة رأيت هويتك في هذه المرآة عبداً لله عزّوجلّ، ورأين من خلال هذه الهوية معنى كلام الله عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ و عَدَّهُمْ عَدّاً ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.

فإذا عرفت هويتك عبداً للهِ عزَّ وجلَّ كانت الخطوةُ التي تليها الخضوع لسلطان الله سبحانه وتعالى، الخضوع لأمر الله عز وجل، تحلّل ما حلّل، تحرّم ما حرّم، تخضع نفسك لما أوجب، فإن عصيت وانزلقت بك قدم، شدّتك عبوديتك إلى صعيد الأمن، بل إلى حصنٍ حصين من رحمة اللّه عزّ وجلّ وفضله، لا

تعود المعصية خطراً على إنسان عرف هويته واستمسك بمعنى عبوديته لله عزّ وجلّ، وهذا معنى قول الله خطاباً لإبليس وقد آل على نفسه أن يضلّ عباده إذ قال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، ومعنى عبادي: أي من تحققوا بمعنى العبودية لي، فإن عصى استغفر الله فلم تضره معصية، وإن سار على رشده عانق شرع الله وأوامره.

والنتيجة التي تلي هذا وذاك: أن هذا الإنسان يملك ناصية السرور في قلبه، ويملك ينبوع الفرحة في كيانه، فلا يدنو إليه كرب، ولا يدنو إليه غم، ولا يذهب ضحية أمراض الكآبة، ولا شيء من هذا القبيل؛ لأنه قد وصل نسبه بالله عز وجل، بل هو دائما يعيش مرفوع الرأس عزيزاً، لاسيما عندما يرى ويسمع ويتفاعل مع قول الله عزّ وجلّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ مولانا ربنا، نحن لسنا مشردين في صحراء الضياع، نحن لسنا تائهين، مولانا يرعانا ويلاحقنا، والخير ممدود النسب منه إلينا، فماذا تريدون بعد هذا من سعادة؟ تريدون النهاية بعد الموت؟ السعادة الحقيقة تنتظرنا أيضاً هناك.